أبو القاسم الشابي

رمز الحب والتجديد والثورة

- رحل شابًا يافعًا في غاية النضج.
- تنقل مع والده القاضي الأزهري، وتعرف على معظم مناطق تونس.
- رثى أباه بقصيدة محبة للحياة.
- دعا لتحرير المرأة واعتبرها من أجمل مظاهر الطبيعة.
- الموت يصبح موتا لأنه يقضي على الحب.

ما أن يسمع أى عربى بيتى الشعر:

«إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة

فلابدَّ أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلى

ولابدّ للقيد أن ينكسر»

وسوف يتذكر فوراً، الشاعر «أبو القاسم الشابى» ويكفى ذلك شاعرنا العربى الخالد فخراً.

لا يقاس عمر الإنسان بالأيام والسنين، وإنما بقدر ما يحقق من إنجازات، وبقدر تأثيره فى شعبه ووطنه، فقد يطول بالإنسان العمر، ولكنه يذهب وتنتهى سيرته، بينما لا يعيش سوى سنوات معدودة ويبقى ذكره خالداً، تتذكره أمته وتحتفل بذكراه شعوب امتد تأثيره إلى وجدانها، وحياتها مادامت الحياة.

هكذا كان الشابى، الذى لم يعمر فى الحياة سوى ٢٥ عامًا، ولكنه فى خلال ١٠ سنوات، هى عمر إبداعه وتوهج شعره، أشعل جذوة الحرية، والنضال فى أمته، وصارت كلماته نبراس الأحرار فى كل مكان، وأغنية حياة تتردد على كافة شفاه المحرومين من البشر، الباحثين عن حياة حرة كريمة.

فى سنوات عمره القليلة، غنى أبو القاسم الشابى «للحب والثورة، والحرية» تجاوزت قصائده واشعاره نطاق بلده تونس إلى كافة أقطار العالم العربى، حتى أصبح الشابى رغم صغر سنه علمًا من أعلام التجديد الشعرى، ورمزاً من رموز الحب والثورة والحرية لدى أجيال عربية عديدة

كان «الشابى» تجسيداً حيًا لدور الشاعر المؤمن بقضايا وطنه وأمته، لم يغن فى فراغ أو إلى فراغ، كان صاحب هدف ورسالة شعرية، لقد آمن دومًا أن الشاعر يشع النار من داخله، ليضىء لمن حوله، فيضىء فى الوقت الذى يحترق بلهبه الداخلى، وينسحب من الحياة بالقدر الذى يمنح للآخرين الحياة.

وكانت تلك حالة الشابى فى شعره وحياته على السواء، ففى الوقت الذى نطق شعره أسطورة الشاعر الذى يحترق لينير للآخرين، ويضحى بوجوده الفردى فى سبيل وجود مطلق يجاوز حضوره الفردى، نطق جسده الأسطورة نفسها، ومارس طقسها أداء وشعيرة، كان مظهرها المرض الذى تسلل إلى جسد الشاعر منذ الصبا وتوغل فيه، ولم يمهله ليجاوز الخامسة والعشرين من العمر.

سنوات التكوين

ولد أبو القاسم الشابى يوم ٢٤ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٩م، فى ضاحية «الشابية» فى مدينة توزر، التابعة لمنطقة الجريد، كان والده من خريجى الأزهر، ودرس سنتين فى جامع الزيتونة فى تونس، حصل بعدهما على شهادة التطويع، ثم عمل قاضيًا شرعيًا، بعد عام من ولادة بكره أبى القاسم.

كان الوالد يقضى يومه بين دار القضاء والمسجد والمنزل، حيث يتبسط مع أهله ويرعاهم، ونشأ أبو القاسم فى سنوات تكوينه الفكرى والخُلقى فى كنف والده، يقتبس من علمه وفكره، وتأثر الشابى بوالده، الذى عُرف بالصدق وقوة العقيدة، والتفاعل مع ما يجرى فى بلاد المسلمين من أحداث، خاصة فى مناطق المشرق العربى، وطرابلس الغرب، وفى بلاد الريف.

وتعلم الشابى من أبيه الرحمة والحنان، وأن الحق خير ما فى هذا العالم.

وقد ساعد على إثراء تجربة «الشابى» الشعرية وتدفق شاعريته، وازدهار ريشته، ورحابة قاموسه الشعرى، تنقله وترحاله بين مناطق تونس المختلفة.

وكانت الأسرة تتنقل مع الوالد حيث يعمل، وتجولت فى البلاد التونسية طولاً وعرضًا.

إيمان بالحياة

قدم أبو القاسم إلى العاصمة التونسية سنة ١٩٢٠م للدراسة فى جامع الزيتونة، وكان فى الثانية عشرة من عمره، حيث درس علوم الشريعة والفقه، واللغة والأدب العربى القديم، واستطاع خلال فترة دراسته أن يُكون لنفسه ثقافة عربية، جمعت بين التراث القديم، والأدب العربى الحديث فى مصر وسوريا والعراق، والمهجر، كما اطلع على جانب واسع مما تُرجم من الآداب الأوروبية إلى اللغة العربية.

ونال سنة ١٩٢٧م شهادة التطويع، وهى شهادة إنهاء العلوم فى الجامعة الزيتونية، وانتسب فى العام اللاحق إلى المدرسة التونسية للحقوق، وتخرج فيها عام ١٩٣٠م مجازاً فى الحقوق.

وفى سنة ١٩٢٩م نُكب الشابى بوفاة أبيه ومعلمه، الذى رافقه عليلاً من زغوان إلى توزر مسقط رأسه، وتجرّع غصص مرضه، ووجد أبو القاسم، نفسه مسؤولا عن أم ثكلى وأبناء صغار، إلا أنه لم يفقد إيمانه بالحياة، ورفض أن يرثى أباه كما تعوّد شعراء العرب، وإنما أنشد يقول:

«ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى
ومشاعرى عميـــاء بالأحـــزان
أنـــى سأظمـــأ للحيـــاة وأحتـــسى
مـن كأســـها المتوهـــج النشـــوان»

وكانت العادة فى تونس، كغيرها من بلاد العرب فى ذلك الوقت، عندما يُولد الصغير، وتُولد فتاة قريبة له، أن يُقال: «هذه فلانة زوجة لفلان»، وقد اتفقت

أسرة الشابى منذ مولده على أن تكون «شهلة» ابنة عمه زوجة له وقد تزوجا، وانجبت له ولدين، هما محمد الصادق، وجلال.

الحب والثورة

نبغ أبو القاسم الشابى فى الشعر مبكرًا، وارتفع صوته جهيرًا فى مدة قياسية من الزمن، وخرج عن نطاق بلده تونس، ومنطقة المغرب العربى والشمال الأفريقى فى عمومه، ووصل سريعًا إلى المشرق العربى.

استطاع فى فترة محدودة أن يكون له معجم شعرى، ألفاظه منتقاة، وعباراته مختارة، وأسلوبه مشوق، وجمله متناسقة، ومعانيه واضحة، ونبراته موحية، ولا يلجأ إلى الغموض، ولا يركن إلى الأسلوب الرمزى.

غنى «الشابى» فى شعره للحب والربيع والحياة والثورة، وكان شاعرًا موهوبًا غنى الإحساس، وكانت الكلمات التى نطقها طيلة سنوات عمره، كلمات محب عاشق للإنسان والحياة، وقادة هذا العشق إلى الارتباط الصادق بأحزان بلاده ومشكلاتها، والتعبير عن هذه الأحزان.

وجاء شعره عن المرأة معبرًا عن الجانب الإنسانى الرفيع فيها، يحمل معنى التبجيل للمرأة، ويربط بينها وبين أجمل ما فى الطبيعة من مظاهر، ويغنى لمعنى الحب، ويجد فى هذا المغنى دفئًا، ويجد فيه أيضًا عالمًا سحريًا رقيقًا يعطيه من صور الحياة، ما يفوق الجمال الحسى الملموس بصورة كبيرة.

والحب عند الشابى حب رومانسى صادق، وأول مظاهر الرومانسية فيه، هو المثالية الكاملة، فالمرأة التى يحبها هى امرأة من صنع خياله السامى، وهى امرأة مثالية تتكون من الأحلام والأطياف والزهور، وهى ليست من جسد، بل من روح شفافة، وليست مزيجًا من الخير والشر، ولكنها خير مطلق، وصفاء مطلق، وحبها حب روحى شفاف يسمو فوق نداء الغريزة.

وكان الشابى يشعر بأن معنى الحياة الرئيسى هو الحب، بل إن الموت لا يصبح

موتًا، إلا لأنه يقضى على الحب، كأن الحب عنده هو المعنى الوحيد للحياة، أو كأنه مرادف جديد لكلمة الحياة، ويقول فى قصيدته «أنا أبكيك للحب»:

«لست يا أمى أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته منى الدنيا وبزتنى رداه
فأنا أحتقر المجد وأوهام الحياة
أو لعمر، بلغت منه الليالى منتهاه
وتلاشت فى خضمّ الزمن الطاغى قواه
فأنا مازلت فى فجر شبابى أو ضحاه
إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه
يملأ الدنيا فأنّى سرت فى الدنيا أراه».

الثورة وإرادة الحياة

كان أبو القاسم الشابى يريد لشعبه الاستقلال والانعتاق والتقدم، يتألم لحاله، عبَّر عن هذا الألم تعبيراً مدويًا جارفًا فى قصيدته «إلى الشعب»، التى نظمها قبل عام من وفاته.

«أين يا شعب قلبك الخافق الحساس
أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان
أين الخيال والإلهام؟
إن يمّ الحياة يدوم حواليك
فأين المغامرُ، المقدامُ؟

تراث الشابى

إنتاج الشابى الأدبى ينقسم إلى قسمين؛ الأول نُشر فى حياته، والثانى بعد وفاته، أما الأول فنشرت منه مجموعة أشعار وقصائد فى المجلات التونسية، كما طُبع له كتاب «الخيال الشعرى عند العرب» سنة ١٩٢٩م، وصدر له بعد وفاته ديوان «أغانى الحياة»، وذلك فى القاهرة سنة ١٩٥٥م، ثم طُبعت منه عدة طبعات، إضافة إلى كتابى «المذكرات» و «الرسائل» اللذين نُشرا عام ١٩٦٦م.

أيـن عــزم الحيــاة؟ لا شــيء إلا

الموت، والصمت والأسى والظلامُ

ورغم آلامه ظل «الشابى» يهز الشعب بشعره، فيصرخ بأعلى صوته:

إذا الشعـبُ يـومًـا أراد الحيـاة

فـلابــد أن يســتجيب الـقــدر

ولابــد لـلـيــل أن ينـجــلـى

ولابــد للقيــد أن يـنـكــسر

ومَن لــم يُعانقه شــوق الحيــاة

تبخــر فــى جـوّهـا، وانــدثر

وصُدم الشابى بوفاة والده «الشيخ محمد بن أبى القاسم»، ووجد نفسه يواجه مسؤوليات مادية عديدة، وهو فى تلك المرحلة المبكرة من عمره. ووضعته هذه الصدمة وجهًا لوجه مع الحياة فى تجاربها العملية الواقعية، وسيطرت عليه الأحزان، التى عجّلت بمرضه. فقد أُصيب بمرض التضخم فى القلب، وظلّ يُعانى من هذا المرض، ويحاول أن يعالجه باستمرار، ويوقف الآلام الشديدة، التى كانت تملأ حياته بالعذاب والأسى، وظلّ هذا المرض يحطّم شيئًا فشيئًا جسد الشابى، حتى قضى عليه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، حيث أسلم الروح فى فجر يوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤م.

أسطورة شعرية

صنع الشابى أُسطورته الشعرية خلال خمس سنوات، هى السنوات الخمس الأخيرة من حياته، كان فى العشرين من عمره، عندما بدأ ينشد للحب والوطن والثورة، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، كان الموت ينتزعه من بين أوراقه انتزاعًا، ويقذف به نحو العالم الآخر.

ووجدت قصائد الشابى الأولى طريقها إلى النشر فى الصفحة الأدبية لجريدة «النهضة» التونسية، التى كانت تصدر كل اثنين من كل أسبوع سنة ١٩٢٦م،

وأيضًا فى مجلة «العالم الأدبى»، وأثار الشابى ضجة كبيرة حوله عندما طرح آراءه فى الشعر العربى، فى الأمسية التى أقامتها جمعية «قُدماء الصادقية» فى شهر شعبان عام ١٩٢٩م، ثم تخطى الشابى، حدود المجلة إلى آفاق عربية أوسع، عندما نشرت له مجلة «أبولو» المصرية قصائده بدءاً من عام ١٩٣٣م.

صادق الوطنية

كان الشابى نحيف الجسم، مديد القامة، قوى البديهة، سريع الإنفعال، حاد الذهن، تكفكف رقة طبعه من غريب عاطفته وحدة ذهنه، يراه أصدقاؤه بشوشًا كريمًا، وديعًا، متأنقًا، طروبا لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية، ويراه من لم يخالطه حييًا محتشمًا، ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصة خلطائه فى غير ما تحرج، متى اجتمع بهم، ويجاهر بها العموم فى شعره ونثره، وكان محبا لبلاده، صادق الوطنية، يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة، حاول جهده أن يحققها فى أثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً.

رثاء الشعراء

أحمد زكى أبو شادى رئيس تحرير مجلة «أبولو» رثى صديقه الشابى سنة ١٩٣٤م قائلاً:

رحلت صديقى بعدما جئت موصيا
بشعرك، فارحل غير خاش وهياب
أنا حارس الفن الذى أنت ربه
وهيهات خذلانى مواهب وهاب
ولكن لى في ما نظمت مدامعًا
قصائد لم تعلن - إن أعلنت - ما بى

تلـوح بأثنـاء السطـور لشاعـر

فروحى من نفسى وأرواح أترابى

وفى سنة ١٩٩٤م وفى ذكراه كتب د. محمد عبد المنعم خفاجى رئيس رابطة الأدب الحديث يقول:

بـزغـت عبـقـريـة شمـاء ... فـى سناهـا أضـاءت الظلمـاء

(توزر) ودا الشابية فى أز ... غامـة تزهـى تـونس الخضراء

عندها كان المهد والوطن الحر ... وشعـب لـه الفخـار رداء

عندها أحلام الصبا والشباب ... الغض والدنيا، والمنى البيضاء

يا أبا القاسم النبيل قم أشهد ... موكبا حوله الورى لك جاءوا

لفك المجد بالخلود وذكرا ... ك بها للشعب التلميذ انتماء